الله أحق من مدح وأجل من ذكر وأعظم من عبد

فسبحان من جعل أمره في كلمة كن، فلا يتعاظمه شيء، ولا يصعب عليه أمر، ولا يتعسر عليه مطلب.

يقول عز من قائل عن نفسه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظمه حق تعظيمه من عبد غيره، لأنه لا أحق بالعبودية منه، ولا أعظم منه.

وقد روى البخاري عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول اللهﷺ فقال: «يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك رسول الله ص حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»، فهذا الكون بما فيه من ضخامة واتساع إنما هو على أصابع القوي القهار يوم القيامة.

وروى مسلم عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبيﷺ قال: «**يأخذ الله عز وجل سماواته وأراضيه بيده، ويقول: أنا الله**، ويقبض أصابعه ويبسطها **أنا الملك** حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول؛ أساقط هو برسول اللهﷺ؟».

ومن عظمته سبحانه عظمة ملائكته الذين يحملون العرش، قال بعض أهل العلم: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم

وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿**فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ**﴾ أي: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿**وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ وهو العذاب الموجع الأليم.

ومن عظمته سبحانه بروز الناس له في اليوم العظيم واطلاعه على كل خافية منهم، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ**﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ولهذا قال: ﴿**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ**﴾ أي: الجميع في علمه على السواء، ففي حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، أنه تعالى يطوي السماوات والأرض بيده ثم يقول: «**أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**».

فأي وصف يصفه به الواصفون، وأي تعظيم يمكن أن يعظمه المعظمون، بل كفاه جل في علاه ما يصف به نفسه، ومدح به ذاته المقدسة، تعالى علواً كبيراً.

ومن عظمته ما ورد في بعض الآثار الإسرائيلية يقول عز وجل: أيؤمل غيري للشدائد والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم؟ ويرجى غيري ويطرق بابه بالبكرات، وبيدي مفاتيح الخزائن، وبابي مفتوح لمن دعاني؟ ومن ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به؟ أو من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت رجاءه؟ أو من ذا الذي طرق بابي فلم أفتحه له؟ أنا غاية الآمال، فكيف تنقطع الآمال دوني؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أليس الدنيا والآخرة، والكرم والفضل كله لي، فما يمنع المؤملين أن يؤملوني؟ لو جمعت أهل السموات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع، وبلَّغت كل واحد منهم أمله، لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة، كيف ينقص ملك أنا قيمه؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني، وتوثب على محارمي.

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : ما من لية اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال ستـرها إلا نادى الجليل جل جلاله: «من أعظم مني جوداً، والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب؟ أكلؤهم في مضاجعهم، كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم، كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبه؟ أم من ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أم من الذي أناخ ببابي فنحيته؟ أنا الفضل ومني الفضل أنا الجواد، ومني الجود، أنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلائق؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون؟» خرجه أبو نعيم في الحلية.

ومن أعظم ما يعظم به جل في علاه توحيده، وإفراده بالعبادة، فالتوحيد هو السبب الأعظم، فمن فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض ـ هو ملؤها أو ما يقارب ملؤها ـ خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها، ثم يدخل الجنة.

قال بعضهم: الموحد لا يلقى في النار كما يلقى الكفار، ولا يلقى فيها ما يلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه وقال بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية.

فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً، وإجلالاً ومهابة، وخشية ورجاء وتوكلاً، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا، لقلبتها حسنات.

ومن عظمته سبحانه حفظه لأوليائه كما قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس: «**احفظ الله تجده تجاهك**» وفي رواية «**أمامك**».

معناه: أن من حفظ حدود الله، وراعى حقوقه، وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده، فـ ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾.

قال قتادة: من يتقِّ الله يكن معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل.

كتب بعض السلف إلى أخ له: أما بعد: فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟! وهذه المعية الخاصة هي المذكورة في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿**قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾ وقال موسى: ﴿**إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾.

وفي قول النبيﷺ لأبي بكر وهما في الغار: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾.

فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، بخلاف المعية العامة، فإنها تقتضي علمه واطلاعه، ومراقبته لأعمالهم، فهي مقتضية لتخويف العباد منه.

وقيل لبعضهم: ألا تستوحش وحدك؟ فقال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني.

وقيل لآخر: نراك وحدك! فقال: من يكن الله معه كيف يكون وحده؟.

وقيل لآخر: أما معك مؤنس؟ قال: بلى، قيل له: أين هو؟ قال: أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي.

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا

كفى لمطايانا بذكراك هاديا

فتبارك الله الذي ذهب بالمجد والسؤدد والعظمة. ولي من الأبيات:

يا رب حمداً ليس غيرك يحمد

يا من له كل الخلائق تصمد

أبواب غيرك ربنا قد أوصدت

ورأيت بابك واسعاً لا يوصد

وانظر إلى وصفه سبحانه لنفسه، فإنه فوق الواصفين له سبحانه، حيث يقول: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾.

فكيف يدركه البصير وهو والذي خلق البصر؟ وكيف يحيط به النظر وهو الذي أوجد النظر؟ بل الأبصار والأنظار والأفكار تحت قدرة مكور الليل والنهار، فما أضعف عقول الخليقة، وما أهون شأن البرية عليه، جل في علاه، فإن إيجاد هذا العالم وفناءه إنما هو بكلمة منه سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾.

فمن عظمته سبحانه أن لا يراه الخلق في الدنيا، ليرى من يؤمن به ممن يكفر، ومع ذلك أقام البراهين على وجوده، ونصب الأدلة على وحدانيته، وأظهر الشواهد على قدرته جل في علاه.

واسمع إلى أصدق الثناء وأشرف المدح، وأجل الوصف في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فتفرد بالبقاء، وكتب على غيره الفناء، وجعل مقاليد الحكم بيده، والكل مقهور تحت حكمه، والجميع مغلوب تحت إرادته، فلا حول ولا قوة لأحد إلا به، تقدست أسماؤه.

ثم ذكر مصير العباد إليه فهو الذي يحاسبهم ويوقفهم بأعمالهم، ويحصي عليهم حسناتهم وسيئاتهم؛ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

فأي عظمة أسمى من هذه العظمة؟! وأي كبرياء أعظم من هذا الكبرياء؟! فالبداية إليه، والنهاية عليه، ولذلك قال شعيب عن ربه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فالتوكل في بداية كل أمر: عليه، والإنابة: الرجوع في كل شأن إليه، فعنده الأولى والأخرى، ومبتدأ الشيء ومنتهاه، وكثيره وقليله، واسمع إلى وصف آخر للقدرة والعظمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد، فضلاً عن أن يملك صنعها أحد، معجزة الحياة نشأةً وحركة، وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة، والحياة الكامنة في الحبة والنواة، النامية في النبتة والشجرة سر مكنون، لا يعلم حقيقته إلا الله، ولا يعلم مصدره إلا الله، وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها.. تقف أمام السر

المغيب كما وقف الإنسان الأول، تدرك الوظيفة والمظهر، وتجهل المصدر والجوهر، والحياة ماضية في طريقها، والمعجزة تقع في كل لحظة.

ومنذ البدء أخرج الله الحي من الميت، فقد كان هذا الكون ولم يكن هناك حياة، ثم كانت الحياة أخرجها الله من الموت، كيف لا ندري؟!! وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت، فتتحول الذرات الميتة في كل لحظة عن طريق الأحياء، إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية، وتتحول ـ وأصلها ذرات ميتة ـ إلى خلايا حية، والعكس كذلك، ففي كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة، إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات ميتة.

﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ** ﴾ ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك، لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموت، ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية، ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة.... في دورة لم يعلم أحد يقيناً متى بدأت، ولا كيف تتم، وإن هي إلا فروض ونظريات واحتمالات.

لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة، على غير أساس أنها من خلق الله، ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا: ﴿ **كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ** ﴾ وهم يحاولون تفسير نشأة الكون، وتفسير نشأة الحياة، دون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعاً، ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد، ولا تدل على الإخلاص.

وأقوال بعض «علمائهم» الذي عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله، تصور حقيقة موقف «علمهم» نفسه من هذه القضية، ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين، عازفين عن هذا الدين، لأنه يثبت «الغيب» وهم «علميون» لا «غيبيون» ويخبر عن الآخرة وهم مفتونون بالعاجلة ويدعو إلى الله رب العالمين وهم مغموسون بالطين وقوله تعالى: ﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾.

إن فالق الحب هو فالق الصباح أيضاً، وهو الذي جعل الليل للسكون، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما مقدرة دوراتهما، مقدراً ذلك كله بقدرته التي تهيمن على كل شيء، وبعلمه الذي يحيط بكل شيء. وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة وانبثاق النور في تلك الحركة كانبثاق البرعم في هذه الحركة.

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى، إن الإصباح والإمساء والحركة والسكون في هذا الكون ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة.

إن هذا الكون مقدر بحساب دقيق، ومقدر حساب الحياة، ودرجة هذه الحياة، ونوع هذه الحياة، كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه، وحتى ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب.

والذين يقولون: إن هذه الحياة فلتة عابرة في الكون وأن الكون لا يحفلها، بل يبدو أنه يعاديها، وأن ضآلة الكوكب الذي قام عليه هذا النوع من الحياة توحي بهذا كله؛ بل يقول بعضهم: إن هذه الضآلة توحي بأنه لو كان للكون إله

ما عنى نفسه بهذه الحياة إلى آخر ذلك اللغو الذي يسمونه «علماً» ويسمونه أحياناً «فلسفة» وهو لا يستاهل حتى مناقشة ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

إن أعظم تعريف لهذا العظيم جل في علاه، وإن أعظم وصف لهذا الملك تقدست أسماؤه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾. وهذا الوصف وحده عليه مدار الرسالات وبه جاءت النبوات، ومن أجله نزلت الكتب، وبعثت الرسل، وأعظم ما يمدح به عز وجل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

واعلم أن النافع والضار حقيقة هو الله عز وجل ولذلك لام أعداءه حينما اتخذوا من دونه آلهة لا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، لأن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع ولا عز ولا ذل؛ بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر، فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به ودعاءه ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضاً عليه محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم.

ونظيره في الدنيا من نزل به بلاء عظيم، أو فاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه.

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

وانظر لغضبه سبحانه على من جهل تعظيمه ولم يوقره حق توقيره، ولم يقدره حق قدره فإن اليهود لما قالوا: ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ كان الرد مفحماً قوياً جازماً صارماً مسكتاً فقال:﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ فهم ذكروا يداً واحدة له سبحانه إخباراً، فتوعدهم ووعده الحق بغل أيديهم جميعاً، ثم أردف قوله: ﴿**وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾ فتوعدهم بالطرد والإبعاد من رحمته.

ثم أخبر أن يديه تعالى مبسوطتان وليست يد واحدة كما قالوا، فهما ملأى بالخير، سحَّاء بالجود لا ينقصها شيء ثم قال: ﴿**يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ فهو يعطي بلا حساب، لا يخشى الفقر، ولا نوائب الدهر، لأن الخزائن عنده، لو سأله كل العباد أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم فأعطى كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

فتبارك الله ما أجوده، وتعالى الله ما أكرمه، وتقدس الله ما أعظمه، ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾.

ولما أنزل الله سورة الأنعام وهي سورة عظيمة بكل ما تحمله هذه الكلمة، افتتح الله هذه السورة بالثناء على نفسه، والتمجيد له سبحانه، والتنديد بأعدائه.

فقال: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ فحمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون، فهو المحمود في

السراء والضراء، وهو الحكيم في الشدة والرخاء، وهو رب المكان والزمان، وهو خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمة والنور، ثم كانت بقية السورة تفصيلاً لهذه الآية، وإثباتاً لوحدانيته تعالى، وانفراده بالخلق، وتفرده بالألوهية، كما نفى الشريك عنه، وذَكَر أوصافه الجميلة، وأسماءه الحسنى، وما ينبغي له من كمال، وما يجب له من تعظيم، ثم النكير الشديد على من ألحد في أسمائه، وأشرك معه وخالف أمره.

obeikandl.com

سجدة في محراب العظمة تورث العز والمجد للعبد

السجود لله أعظم هيئات العبودية، أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، لأن السجود إذعان بالعبودية، واعتراف بالألوهية، وخضوع تام للمهيمن، ومنابذة للشيطان، وتحرر من الهوى، وانطلاق من قيود الدنيا، وعتق من عبودية الطاغوت.

والسجود لله هيئة خاشعة تثير في النفس حديثاً لا ينتهي من المحبة للجليل، والتمسكن للأحد الصمد، والاستسلام للملك السلام ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

السجود لله جل في علاه موقف مُبْكٍ لأن فيه إخاء وصفاء ووفاء واستعلاء.

أما الإخاء فالجميع يسجدون لرب العالمين، الملك والمملوك، الغني والفقير، الأبيض والأسود، السيد والمولى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

وأما الصفاء فهو تجرد النفس من أوسمة العظمة، ورتب الفخامة، وألقاب الزعامة ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

وأما الوفاء: فهو رد الجميل من العبد إلى المعبود تبارك وتعالى، والاعتراف بأياديه الجليلة، وأنعمه الجزيلة، وهباته الجميلة.

فبالسجود يحصل ثناء العبد على سيده ومولاه تبارك وتعالى، وحمده له على ما أعطى وأولى وأسدى وأغنى.

وأما الاستعلاء في السجود فهو انتصار العبد على نفسه الأمارة، وقهر العبد لإبليس اللعين، وغلبة المسلم لدواعي الشر.

فإذا سجد قرب من ربه، وبعد من شيطانه، وخلص من هواه، وطهر من خطاياه، وعصم من عدوه، ونجا من الشرك، وفاز بالأجر.

الله... ما أجمل السجود بتمريغ الأنوف لله وحده.

وإلصاق الجباه بالتراب للملك الحق ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ وطرح الجماجم على الأرض لله الواحد القهار.

مباشرة الوجوه للطين إجلالاً لرب العالمين، وضع الرؤوس موضع الأقدام توقيراً للملك العلام.

الله... ما أجمل السجود رسالة حية مباشرة لكل ملوك الأرض، معناها: أن الملك حقيقة هو الذي في السماء، وإشارة مفهومة لكل طواغيت الدنيا مفادها: آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت.

وموقف حازم جازم فحواه: الكل يفنى إلا الله، الجميع ينتهي إلا الله، الناس فقراء إلى الله، الخليقة فانية إلا الله.

الله... ما أحسن السجود ضربة قاتلة في رأس الصنم، وطعنة نجلاء في قلب الوثنية، وكلمة قاضية في وجه الأدعياء، ثورة مقدسة على الباطل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾.

الله... ما أرفع السجود عيد أكبر للإيمان، ومولد مبارك للتوحيد، ومهرجان عامر للرسالة الخالدة، ومناسبة عظيمة للمؤمنين بربهم، المحبين لرسولهم المناضلين لمبدئهم، الذابين عن شرعهم.

انظر إلى الساجد إذا سجد هل رأيت صورة أجمل من هذه الصورة؟! هل مر بك منظر أحسن من هذا المنظر؟! هل طاف بك مشهد أجل من هذا المشهد؟! صورة الإنسان الحي المتحرك فجأة يخر على وجهه وأنفه ويديه وركبتيه ورجليه ساكناً صامتاً خاشعاً مخبتاً ذليلاً باكياً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾.

منظر العبد الذي كان يأمر وينهى، ويأخذ ويعطي، ويقول ويفعل، فجأة وإذا هو قد وسَّد جبهته، ومرغ أنفه، وعفر وجهه، وأخضع كبرياءه، وأذل عنفوانه لله رب العالمين.

مشهد هذا الكائن الحي بصورته الجميلة، وقامته السامقة، وهيكله المتناسب، وجسمه المتناسق، فجأة يقع جثة لا حراك فيها على التراب، وفجأة يسقط كتلة هامدة على الطين، وفجأة يهوي ذليلاً خائفاً وجلاً نادماً متحسراً ذاكراً لله رب العالمين.

يا أيها الإنسان إنك لن ترتفع عند الله إلا إذا انخفضت له ساجداً، ولن تجد العزة إلا إذا ذللت له ساجداً، ولن تحصل على الغنى إلا إذا افتقرت له ساجدا، فالسجود إذاً رفعة وعزة وغنى وقوة.

يا أيها الإنسان لن تقرب من الله حتى يقترب أنفك الشامخ من التراب ساجدا.

ولن يكرمك الله حتى تضمخ جبهتك الشماء بالطين ساجدا.

ولن تحرر من عبادة الطاغوت حتى تضع رأسك على الثرى ساجدا.

للسجود أسرار يعرفها الأولياء.

قربك من التراب يقول لك هذا أصلك أيها الإنسان فلماذا تتكبر؟!.

دنوك من الأرض يقول لك: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

اتصالك بالطين يقول لك هذا نسبك أيها الإنسان فلا تفتخر. في السجود الرأس والقدم سواء، والأنف والرجل سواء، والوجه والركبة سواء، والسيد والمسود سواء، والغني والفقير سواء.

الطريق إلى السماء يبدأ من الأرض، ومفتاح الرفعة عند الله الذلة له، وباب القرب منه السجود له، انخفض لترتفع، وتذلل حتى تكرم، وافتقر له ليغنيك.

من كان في نفسه كبر فليضعه إذا سجد، لأنه يسجد لكبير متعال، من كان في جمجمته عزة جاهلية فليلقها إذا سجد لأنه يسجد لرب العزة والجلال، من حمل في عطفيه خيلاء فليبرأ منه إذا سجد؛ لأنه يسجد لرب الأرض والسماء، من سكن في قلبه فخر فليضعه إذا سجد لأنه يسجد للملك الجبار القوي القهار.

obeikandl.com

الإحرام بالحج تعظيم للملك الحق وإعلان الوحدانية له وحده وإرغام الشيطان وحزبه

إذا أراد الحاج أن يزور بيت مولاه، ودار خالقه ورازقه فعليه أن يترك الدنيا كل الدنيا حتى ينسلخ من ثيابه وعمامته وزينته، ويتجرد تماماً من كل لباس إلا الإحرام.

ليتذكر بالإحرام الكفن.

من تعظيم العظيم جل في علاه أن لا يأتيه الزائر إلا حاسر الرأس أشعث أغبر.

ليظهر فقره وضعفه وذله وعجزه وبؤسه، من عظمة العظيم أن لا يفد إليه الوافد إلا متجرداً متخشعاً متذللاً متضرعاً متمسكناً، لتبقى العظمة والقهر، والقوة والعزة، والجبروت لله رب العالمين.

الفقير الذي ليس عنده دينار، والغني الذي عنده ألف قنطار كلهم محرمون.

الملك صاحب الجنود والبنود محرم، كالبائس المحروم؛ لتبقى العظمة والكمال، والجلال، والجمال، والمجد والملك كله وجميعه وأوله وآخره كثيره وقليله دقيقه وجليله لله رب العالمين.

القلوب والأبدان والرؤوس مكشوفة.

النيات والأجسام والوجوه بادية.

السادة والعبيد والأغنياء والفقراء شعث غبر.

هل رأيت لباساً أجمل من لباس المحرمين.؟!

هل شاهدت رؤوساً أحسن من رؤوس المحلقين؟!

هل سمعت صوتاً أندى من صوت الملبين؟!

هل نظرت إلى زحف أكرم من زحف الطائفين؟!

هل أبصرت دمعاً أصدق من دمع الخاشعين؟!

هل سمعت أنيناً أصدق من أنين التائبين؟!

هل رأيت نعاساً أهنأ من نعاس المتهجدين؟!

التعب في مرضاته لذة، والسعي إلى رحابه فوز، والعذاب من أجله عذب، والسهر مع كتابه سعادة، والجوع في طاعته غنيمة، والقتل في سبيله شرف أحسن حركة: اللسان إذا سبحته. وأجمل إشارات: السبابة إذا وحدته، وأصدق لغة: للعيون إذا دمعت من خشيته، وأنبل نبضات: القلب إذا نبض بذكره، وأجل الخطوات: ما سارت إليه، وأطيب الكلمات: ما أشادت به.

أمر الخليل أن يبني له بيتاً في أرض صحراء وجرداء قاحلة فحمل الناس الشوق إلى بيت الحبيب حتى تقطعت من حبه نياط القلوب، وتشققت في السعي إليه الأقدام، وتزاحمت في الدنو من بيته الأكتاف، وضجت بتلبية ندائه الأصوات، واكتظت في ضيافته الجموع، وتساوت في خدمته الرؤوس، ووجلت من خوفه النفوس.

التلبية: إعلان الوحدانية، والاحتجاج على الوثنية، واستنهاض همم الإنسانية.

الطواف: ملازمة بيت الملك، وتعهد دار الواجد الماجد، والدوران حول رمز القداسة والطهر والسمو.

السعي: متابعة الأم، وتجديد الشوق، وإظهار المحبة.

الرمي: قذف العدو، وتحطيم الخرافة، وإزهاق الباطل، وسحق البهتان.

الوقوف بعرفة: التهيؤ للعرض الأكبر، والاستعداد للرحيل المحتوم، وعرض الضعيف على القوي، والفقير على الغني، والعجز على القهار، والذنب على التواب، والحاجة على الجواد، والسرائر على علام الغيوب، سبحان من أحوج الناس إليه حتى أصبح أغناهم من أحسن الفقر له، وأقواهم من أجاد الضعف بين يديه، وأعزهم من تذلل له، وأرفعهم من خضع لجبروته، وأكرمهم من تواضع لعظمته، وأتقاهم من انكسر لجلاله وهيبته.

ترفع إليه الأصوات بشتى اللغات، ومختلف اللهجات؛ بأنواع الحاجات، فيعلم حاجة الجميع، وسؤال الجميع، ومطلب الجميع، فيعطي كلاً، ويجود على كل، ويتفضل على كل، ثم تبقى خزائنه كما هي، لا ينقصها العطاء، ولا يغيضها الجود، ولا يؤثر فيها كثرة البذل والكرم ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾.

صوت العظمة يملؤ الآفاق ويصل إلى سويداء القلوب ليملأها حباً وشوقاً وتعظيماً للباري

كلما حانت الصلاة أذن المؤذن ليعلن المبدأ صراحة، بلا خفية، علناً بلا سر، جهراً بلا كتمان، ليقول للناس: هذا دين صريح واضح لا ألغاز فيه ولا أسرار، ولا أحاجي، وأكبر قصد للأذان تعظيم الرحمن، والثناء على الديّان، وتمجيد المنان.

إن الأذان وثيقة ربانية يكررها المؤذن كل يوم خمس مرات، فكأنه يقول: يا من نسي أو تناسى تذكر أن الله أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأحب من كل شيء، يا من غفل أو تغافل تذكر أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

يا من جهل أو تجاهل تذكر أنك على موعد مع الله في بيته لتريه ضعفك وفقرك وعجزك وحاجتك.

الأذان يذكرك دائماً بعظمة الله عز وجل، فهو يصيح بالنائمين: استيقظوا فإن الله عظيم، وهو يهتف بالغافلين: تنبهوا فإن الله عظيم.

وهو يزلزل الكافرين ويلكم أما علمتم أنه عظيم، كل قرية وكل مدينة في الإسلام تضج بالأذان مع كل صلاة لتبلغ الناس رسالة العظمة في قوة، وخطبة القداسة في حماس، وخطاب التمجيد في صرامة لسان. حال المؤذن يقول: أيها العالم المنشغل بدنياه، أيتها الخليقة المنهمكة في دنياها، أيها القوم المنغمسون في أعمالهم: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أيها الفلاح في مزرعته، أيها الأستاذ في مدرسته، أيها الطبيب في عيادته، أيها التاجر في تجارته، أيها الملك في مملكته، أيها المعرض في غفلته، أيهاالمستغرق في نومته: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

يا حجر، يا شجر، يا مدر، يا بدو، يا حضر، يا من غاب ويا من حضر، يا من اغتنى، ويا من افتقر، يا من غُلب ويا من انتصر: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أيها الشيخ الهرم، أيتها العجوز المسنة، أيها الشاب، أيها الطفل، أيها الغني، أيها الفقير، أيها الناس، كل الناس، أيها العالم كل العالم، أيها الكون كل الكون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أيها النهار الباسم، أيها الليل القاتم، أيها الطل الناعم، أيها الجبل الجاثم، أيها النهر الجاري، أيها الضوء الساري، أيها الشعاع الناري، أيتها الحديقة، أيتها الأزهار، أيتها الأوراق: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

يا عرب ويا عجم، يا فرس يا روم، يا بيض يا سود، يا مسلمون، يا كافرون، يا موحدون، يا ملحدون، يا مهتدون يا ضالون، يا عارفون، يا منكرون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

يا قارات، يا محيطات، يا آسيا، يا إفريقيا، يا أوروبا، يا أمريكا، يا كل أرض، يا كل سماء: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الأذان كطلقات المدفع على قلاع الوثنية، وكالقذائف المتتابعة على ثكنات الجاهلية.

obeikandl.com

الأذان صيحة نصر، وصرخة الضمير الحي، وصوت الواجب المقدس، ونشيد الأحرار، وملحمة الشهداء، وتحية المنهج الرباني، والشرع المحمدي، والدين الإسلامي ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

obeikandl.com

فصل

ذكر ابن بطوطة في رحلته: أن واعظاً كرر قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فصاح أحد الحضور ثم وقع ميتاً.

إن عظمة الساعة من عظمة من قدرها وصورها وقضاها جل في علاه. وفي السير أن عبدالله ابن وهب ـ العالم العابد ـ سمع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾. فخر مغشياً عليه ومات بعد ثلاثة أيام. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وفي البداية أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سمع القارئ يقرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾ فحمل إلى بيته، وبقي مريضاً شهراً كاملاً يعوده الناس.

إنه تعظيم الباري عز وجل، والخوف من مقامه، ومعرفة قدره وقهره، وإن عظمة القرآن من عظمة منزله جل في علاه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

فسبحان سميع الدعاء، سريع الإجابة، خفي اللطف، فارج الكرب، كاشف السوء، مجيب دعوة المضطر، فالق الإصباح، مزيل الهم.

وذكر أبو الفرج الجوزي عن الخليفة المعتصم: أن قوماً ركبوا البحر، فسمعوا هاتفاً يهتف بهم من يعطيني عشرة آلاف دينار حتى أعلمه كلمة إذا

أصابه غم أو هم أو خاف هلاكاً أو وقع في كرب فقالها: كشف الله عنه كربه، وأزال عنه همه، وغمه، فقام رجل من أهل المركب، فصاح: أيها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وعلمني، فقال: إرم بالمال في البحر، فرمى به، فقال الهاتف: إذا وقعت في كربة أو أصابك هم أو غم فاقرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ فقال الرجل: فو الله ما وقعت في كربة، أو أصابني هم، أو غم؛ فقرأت هاتين الآيتين إلا كشف الله كربي، وأزال همي، وغمي. فله الحمد علمنا كيف ندعوه ونرجوه ونسأله، ووعدنا الإجابة بل ضمنها سبحانه فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ اللهم فرج كربنا وأزل غمنا وهمنا، وأذهب حزننا، ويسر لنا أمرنا يا أرحم الراحمين.

وذكر ابن عبدالبر في كتاب الوزراء: أن المحلى بن أيوب الكاتب العباسي المشهور قال: لحقتني نكبة، ووقعت عليَّ كربة أطارت نومي، وكادت تذهب بعقلي فلجأت إلى الله عز وجل في كشفها، وألححت عليه في الدعاء، ثم نعست فرأيت شخصاً بين يدي يقول: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ثم انتبهت وقد جاء من الله الفرج فكشف كربتي، وأزال ما أهمني، وهذا أمر معلوم عند ذوي الفطر السليمة أن من ألح على ربه في الدعاء، وصدق في الطلب، جاءه الفرج كلمح البصر.

ونقل أبو الفضل الشيرازي الكاتب عن رجل من الصالحين: أنه خاف عدواً قصده بسوء ودبر له مكيدة، فالتجأ هذا الرجل إلى الله، فرأى في منامه قائلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن

سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال: فما أصبحت إلا وقد كفيت أمر ذاك العدو، وأهلكه الله، ونصرني عليه، فتبارك ناصراً أولياءه وقاهراً أعداءه.

وذكر أبو بكر بن شجاع المحدِّث الثقة: أن بعض الصالحين ألح عليه الغم وضيق الصدر، وتعذر الأمر حتى كاد يقنط فسمع قائلاً ينشد:

إذا ضـــــاق بـك الأمـــــر ... فـــــفـكـر فـي ألـم نـشـــــرح

فـــعـــســـر بـين يـســـريـن ... مـــتـى تـذكـــرهـمـــا تـفـــرح

فأهناك إلى فرجه وغوثه ومعونته لأوليائه وأحبابه.

ولقد كان الله جل في علاه عظيماً في قلوب سلف الأمة يقدرونه حق قدره يعظمون شعائره وحرماته.

ورد عن الإمام الشافعي أنه قال: ما حلفت بالله صادقاً، ولا كاذباً، وما كان إلا توقيراً لاسم الله عند هذا الإمام أن يمتهن على اللسان.

ولما أراد علي بن الحسين زين العابدين أن يلبي تردد وارتعد وتغير لونه فقال له أصحابه مالك؟ قال: أخشى أن أقول: لبيك اللهم لبيك، فيقال لي: لا لبيك ولا سعديك، فلما لبى اضطرب واحمر وجهه حياء وخجلاً وخشية له تبارك وتعالى، لأن هذا الرجل الصالح وأمثاله عظم عندهم قدر الله، وكبر في نفوسهم حب الله، فظهر على جوارحهم وأعمالهم.

وقد أوصى بعض الصالحين ابنه فقال: يا بني عظم أمر الله في نفسك. وهذه من أحسن الوصايا، فإن من عظم أمر الله اتقّاه، وخاف لقاءه، وحفظ حدوده، وهجر معاصيه.

obeikandl.com

وقد أنكر رسول الله ﷺ على من قال: ما شاء الله وشئت فقال: «**أجعلتني لله نداً لا بل ما شاء الله وحده**».

فلا يحق لعبد أن يقارن بين الله جل في علاه وبين أحد من خلقه ولا أن يساوي بينه وبين شيء من مخلوقاته، فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله، تبارك الله رب العالمين.

واعلم أن مِنْ عظمة الله أنه لا حول لأحد ولا قوة إلا به؛ ولذلك كانت هذه الكلمة من أعظم الكلمات، فقد صح أن الرسول ﷺ قال لأبي موسى ـ رضي الله تعالى عنه ـ: «**عليك بلا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنز الجنة**».

قال أحد الصالحين: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم.

وفي الوابل الصيب: أن الله أمر الملائكة بحمل العرش فلم تستطع فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله فقالوها فحملوا العرش بإذن الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله ينال بها أشرف الأحوال، وتهون بها الأهوال، وتحمل بها الأثقال، ويصلح بها البال، وهي من أحسن الأقوال.

ومن عظمته سبحانه أنه لا يلتجأ في الشدائد إلا إليه دون غيره، ولا يسأل إلا هو دون سواه جل في علاه.

قال عز من قائل: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾. وقال عز من قائل: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ وقال: ﴿**قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ**﴾ .

وانظر إلى قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، فما وجدوا ملجأ غير الله؛ فسألوه سبحانه وتوسلوا إليه بأعمالهم الصالحة، فأنجاهم وأخرجهم من الكرب، وأنقذهم من الهلاك، حتى إن دعاء الكرب يشتمل على معاني التمجيد والتعظيم والتبجيل للملك الجليل جل في علاه وكانﷺ يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم**».

إن أحق ما مدح وما أثني عليه هو الله عز وجل، ولهذا صح في الحديث أن رجلاً قال يا رسول الله: إني أثنيت على ربي ومدحته بأبيات من شعر، قال: «**أما إن ربك يحب المدح**» وفي الأثر الآخر «**ليس أحد أحب إليه المدح من الله**»، ولذلك مدح نفسه جل في علاه.

قال طاووس بن كيسان العالم العابد الزاهد: كنت في البيت الحرام ذات ليلة إذ دخل علي ابن الحسين زين العابدين، فقلت: رجل صالح من أهل البيت لأسمعن دعاءه هذه الليلة قال: فصلى، ثم سجد، فأصغيت بسمعي إليه، فسمعته يقول: عبدك بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك.

قال طاووس: فحفظتهن، فما دعوت بهن في كرب، إلا فرج الله عني، وسر هذا الدعاء تعظيم الرب سبحانه، واحتقار العبد لنفسه، وصدق الافتقار إلى مولاه، وعظيم الرغبة في فضله.

إن الدعاء من أعظم شعائر التعظيم لربنا عز وجل؛ لأنه سواء فيه الفقير والغني، والضعيف والقوي، والعبد والسيد، وفيه شهود القلب بغنى الرب، وكماله وجلاله وجوده، ويقين النفس بفقرها وعجزها وذلها، وضعفها.

وفي حديث صحيح «**أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: أما علمت أن عبدي فلان بن فلان مرض فلم تعده أما إنك لو عدته وجدتني عنده**».

لأن المريض مكسور القلب، وانكسار قلبه هو سر قربه من ربه ومولاه، فكلما زاد العبد لمولاه انكساراً أو احتقاراً زاده عزّاً ورفعة، وإكراماً، ولذلك ورد في حديث صحيح أن الله يجيب دعوة المسافر، لوجود الانكسار عنده والمسافر انكسر قلبه لغربته وبعده عن أهله ووطنه، والقلب محل نظر الرب تبارك وتعالى.

وفي الحديث الصحيح: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا أموالكم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

قال بعض الكتاب: إن الله تعالى ليمتحن العبد، ليكثر التواضع له والاستعانة به، ويجدد الشكر على ما يوليه من كفايته، ويجيد الانكسار على عتبات الربوبية، ويحسن الانطراح على أبواب الألوهية؛ لأن دوام النعم والعافية تُطْغي العبد، وتُقسي القلب، وتُنسي الدعاء، فسبحان من استخرج الدعاء بالبلاء لا إله هو، ولا رب سواه.

openkanal.com

كلام الله في كتابه آية من آيات عظمته حيث التأثير والإعجاز والبيان والسمو

القرآن المعجزة الخالدة، حيث العدل في الحكم، والصدق في الخبر، والبيان في القول، والتأثير في السامع، واليقين في النقل، والوضوح في الدلالة.

القرآن كلامه المنزل على عبده، وحديثه الموحى إلى مصطفاه، وحكمه الموجه إلى خلقه.

القرآن موجز، وكذلك الإعجاز بيِّن، وكذلك الدليل قاطع، وكذلك الحقيقة، وشائق، كذلك الجمال رائع، وكذلك الحسن.

كل آية نجمة في سماء البيان تلمع أمامك، وتشع فوقك، وكأنها تناديك: انظر وتأمل وتدبر، أنا حقيقة في ديوان البيان، أنا قصة في دفتر الخلود، أنا أعجوبة في سِفْر المعرفة.

كل سورة هالة من الحسن في عيد البلاغة، وعروس من البهاء في مهرجان الإعجاز، وحديقة غناء في أرض الفصاحة، يا أحياء، يا فصحاء يابلغاء، يا خطباء، يا شعراء، أسألكم بالله هل طرق المسامع مثل القرآن بياناً وجاذبية؟! هل وقع في القلوب مثل القرآن يقيناً وهدى؟!

هل قرأت العيون مثل القرآن جمالاً وإبداعاً؟!

هل ذاقت الأرواح مثل القرآن حلاوة وطلاوة؟!

هل هز منابر الدنيا مثل القرآن تأثيراً وتمجيداً؟!

هل جلجل في النوادي مثل القرآن براءة وإشراقاً؟!

obeikandl.com

يا حملة الأقلام والمحابر، يا أهل الصحف والدفاتر، يا روّاد النوادي والمنابر، بالله هل ذقتم كالقرآن يوم صارت كل آية مائدة من النور والحبور والسرور؟!.

بالله هل شنف المسامع مثل القرآن يوم صار كل حرف عالماً من الإيحاءات والذكريات والعظات؟!.

بالله هل أثلج الصدور مثل القرآن يوم صارت كل كلمة طائفة من الحجج والبراهين والهدى؟!.

استيقظ يا عقل من سبات الغفلة، وخمر الهوى، وسكار الباطل، استيقظ على وقع مطارق القرآن التي أحدثت دوياً في عالم الثقلين، وفي دنيا الأحياء وفى سماء الخليقة.

استيقظ يا قلب بعد رقدة الغفلة، ونوم الجهل وهجعة الصبا، استيقظ على صوت القرآن الفريد حيث يشق الآفاق، ويخترق الأثير، ويكتسح الشبهات، استيقظ يا عالم من فترة الصبا، وجفوة العقوق، ومرحلة الضياع، استيقظ على هتاف القرآن، حيث يزلزل الوثنية في النفس، والخرافة في العقل، والخيانة في الضمير، والرجس في الجسد، والظلم في الناس.

أيها الناطقون بكل لسان، المتكلمون بكل لغة، المتحدثون بكل لهجة اجمعوا أروع القصائد، وأحلى الملاحم، وأبلغ الخطب، وأحسن القصص، وأجمل الكلمات ليأتي القرآن بنبعه المتدفق، ونوره الوهاج، وحسنه البديع، وتأثيره العجيب، فإذا القصائد والملاحم والخطب، والقصص، والكلمات صارت هباء منثوراً، وعملاً مبتوراً، لا قيمة ولا روعة ولا حسن ولا جمال، لأن من تكلم بالقرآن هو الذي خلق من تكلم بالخطبة؛ ولأن الذي أنزل القرآن هو

الذي صور من نظم القصيدة، ولأن الذي أحكم القرآن هو الذي أوجد كاتب القصة، فكيف نجعل كلام المخلوق ككلام الخالق؟! وكتاب الناقص مثل كتاب الكامل؟! وقول الواجد الماجد الغني القوي كقول العاجز الهزيل الضعيف الفقير؟!.

منذ خلق الله الخلق وطبقات الأثير مكتظة بذبذبات الأصوات، ورفوف الأدراج مزدحمة بأكوام المجلدات، وبطون الصحف غرقى في بحور المقالات والكلمات، والمقامات نتاج يملؤ النوادي والمحافل والمجامع والمسارح.

ثم يصل القرآن من السماء إلى الأرض، ومن العرش إلى الثرى، ومن الرحمن إلى الإنسان، فكأن الخليقة لم تقل شيئاً، ولم تكتب شيئاً، ولم تؤلف شيئاً.

نُسِيتْ ملايين الخطب وبقي القرآن، واندثرت أكوام الكتب، وبقي القرآن، ومحيت آلاف القصص، وبقي القرآن؛ لأن القرآن من فوق، وهي من تحت؛ ولأن القرآن سماوي، وهي نتاج أرضي؛ ولأن القرآن من رب العالمين، وهذه الثقافات من سلالات الطين.

لا تقل للشمس في رابعة النهار هذه الشمس الساطعة، ولا تقل للقمر ليلة البدر هذا القمر الباهي، ولا تقل للبحر يوم تزخر أمواجه هذا البحر الزاخر، أغنى منها عن مدحي ومدحك لأن الشمس تغيب، والقرآن في استمرار، والقمر يأفل، والقرآن في امتداد، والبحر يغيض، والقرآن في عطاء وبذل، للشمس وجه واحد من الحسن، وللقرآن أوجه من الحسن والجمال والجلال، الشمس صامته بكماء، والقرآن مؤثر مبين معجز مفحم، الشمس يخفيها السحاب، والقرآن لا تخفيه شبهة، ولا تكتمه نحلة، ولا تستره دعوى.

وأما القمر فيمر بخسف يذهب نوره، والقرآن يسطع ويشع ويلمع على تداول العصور، واختلاف الدهور، وتعاقب الأجيال، وتتابع القرون، والقمر بين صغير ثم يكبر ثم يصغر، والقرآن نزل كبيراً، ويبقى كبيراً، ويستمر كبيراً.

وأما البحر فموجه كالح، وطعمه مالح، وأما القرآن فوجه مشرق، وطعم هنيء له حلاوة، وعليه طلاوة، والبحر به أجسام غريبة، وجثث ميتة، والقرآن حقائق من الهدى، ومعالم من البيان، وحصون من المناعة، والحفظ من الرعاية والولاية.

والقرآن جديد دائماً، لذيذ أبداً، تكرر علينا الفاتحة في كل ركعة، ونسمعها مئات المرات، وفي كل مرة جديدة لذيذة ممتعة، لها طعم آخر، ولون آخر، وإشراق آخر، كأنا لم نسمعها من قبل.

ولو أن القرآن وجه إلى جبل؛ فوقعت على الجبل عبارات القرآن وتساقطت على الجبل كلمات القرآن، وانسكبت على الجبل جمل القرآن لرأيت الجبل خاشعاً متصدعاً من خشية الله، هذا، وهو جبل من حجر صلد فكيف بالإنسان ذي القلب الضعيف المنسوج من لحم ودم؟! ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن؛ لأنه له من القوة والسلطان والتأثير ما لو قصد به الصخر لتشقق، ولوكلم به الميت لسمع، أو قصدت به الأرض لتقطعت، لماذا؟ ما هو السر؟ كيف يكون له هذا الوقع؟ ما هي المؤثرات فيه؟ إنه كلام الله وكفى.

الجن عالم آخر، وأمة ثانية، سمعت القرآن فعجبت لبلاغته، وانصاعت لبيانه، واندهشت من فصاحته، وقالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا**﴾، فكيف بأهل اللسان، وأصحاب اللغة العربية، تقرأ القرآن فإذا الزمان مطوي أمام ناظريك

والمكان مجموع بين يديك، والأمم حاضرة عندك، تقرأ القرآن فيملؤا منك أقطار القلب ومنافذ النفس، يدفع الشبه، يطارد الانحراف، يسحق الزور، يدفع الباطل، يزلزل الجهل.

تقرأ القرآن فيأخذ بيدك إلى الهدى، ويفتح قلبك على النور، ويقود ضميرك إلى الرشد، ويهتف في جوانحك استيقظ، ويصيح في كيانك انتبه.

تقرأ القرآن فإذا القصة، لكن أحسن القصص بلا جدال، وإذا الموعظة لكن أبلغ المواعظ بلا خلاف، وإذا المثل لكن أصدق الأمثال بلا ريب.

والقرآن مؤنس يسليك عن كل صاحب، ويعزيك عن كل ذاهب، ويكفيك عن كل كتاب، ويعوضك عن كل غائب.

والقرآن معجز يأخذ الشبهة فيضعها ثم يدفعها ثم يسحقها فإذا هي رماد تذروه الرياح.

والقرآن جميل يعاد على المسامع، فإذا روعة النغم تنساب في لذة، وتعبر الأذن في نشوة، وتلج القلب في ترحاب، وتغوص في قاع النفس في يسر، عظمة القرآن من عظمة منزله جل في علاه، لأن القرآن كلام الحاكم، وخطاب الملك، وموعظة المهيمن، ووصية الباري، نصيحة الله جل في علاه ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** ﴾.

كل جيل بعلمائه وقرائه وخطبائه ووعاظه وأدبائه يقرؤون القرآن فيعجبهم، ويدهشهم ويثيرهم ثم يموت هذا الجيل، ويأتي جيل آخر فيعجبون من القرآن ويدهشون، ويتأثرون ثم يموتون، ويبقى القرآن كما أنزل قوة وحسنا وروعة وبياناً وإشراقاً، آياته كلما طال المدى تتجدد.

والقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه فكل نظرية أو مقولة أو نحلة أو ملة أو مبدأ جد بعد لا يمكن أن ينقصه بل للقرآن السلطان والحجة على كل ما جاء بعده فلله الحجة البالغة.

والقرآن لا يأتيه الباطل من خلفه، فلا يسبقه ما يناقضه، بل القرآن له السؤدد والنفوذ والهيمنة.

تُملؤ المصنفات بالكلام، وتُعبَّؤ الدفاتر بالقول، وتسود الصحف بكل مكتوب ثم يأتي القرآن فيختصر الجميع في جملة، ويوجز الكل في عبارة، ويلخص ما كتب لأنه كلام الله وكفى.

كأن علمهم وثقافتهم وأدبهم وديوانهم القرآن العظيم.

يجلسﷺ مع أصحابه فيأمر ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ تلميذ الرسالة البار، وصاحب القرآن الماهر، أن يقرأ عليهم القرآن فاستحى ابن مسعود من المعلم الرباني والإمام القدوة، والرسول المعصوم أن يقرأ بين يديه، فقال كيف أقرأ عليك القرآن يا رسول الله وعليك أنزل؟ فقالﷺ: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، وابتدأ ابن مسعود يقرأ سورة النساء وارتحلت القلوب معه وهي تسمع كلام الباري وتنصت لقول الحق حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ وصل إلى هنا ووصل الأثر إلى الأعماق، ودخل هذا القول إلى أغوار النفس، وأوقفﷺ ابن مسعود قائلاً: «**حسبك الآن**» قال ابن مسعود: فنظرت إلى عينيه تذرفان.

إن أعظم تمجيد يقال في القرآن، وأجل مدح يصاغ في القرآن: أنه كلام الله فحسب، فإذا كانت هذه عظمة القرآن فكيف بعظمة من أنزله، وتكلم به، فسبحانه ما أعظمه وأكرمه، وأحلمه، وأرحمه جل عن الشريك، وتفرد عن الند وتنزه عن الضد، **لا إله إلا هو**.